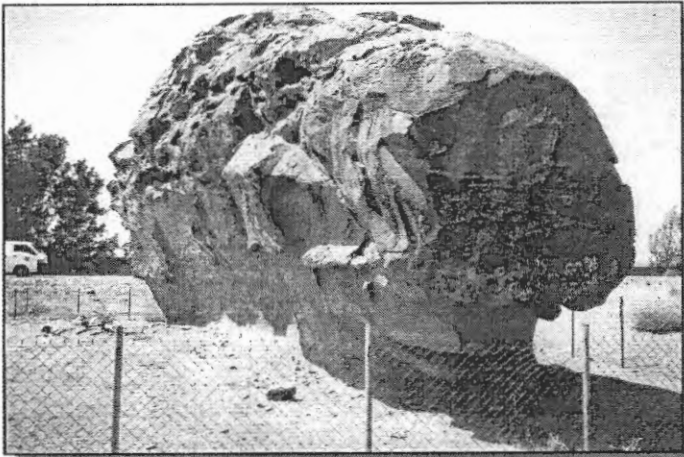


الفصل الثالث

عنزة بن شداد ..

من قصيباء.. إلى عيون الجواء



هانحن أولاء فى بلاد القصيم الواقعة فى منتصف الطريق إلى شمال السعودية.
وها هو ذا الطريق منبسط إلى اللقاء بعنتره بن شداد.. أو عنتره العيسى الذى
تسكنك تجاهه ذكريات «تعارف» تضرب فى سنواتك الأولى، أو فى خزانة ذكريات
طفولتك، ذلك الجدار الرقيق الذى تقفز منه كلما تعبت من إحصاء الشعرات البيضاء
وهى تتسلل من فوديك إلى حيث «قد» تشعل الرأس شيباً...!!
الطفولة.. التى مازلت تأنس بها كلما أغلقت عليك أبواب الراهن وانعزلت
بكليتك عن هذا العالم.. أو إذا دخلت «داخلك» فى أية لحظة ينتعش فيها صخب
الأشياء حواليك..

كان عنتره أحياناً.. قصة مرسومة فى مجلات الأطفال، لكن الخيال فيها كان دائماً
أكبر من الحقيقة.. فمازلت تتذكر دهشتك وأنت ترى عنتره صغيراً يجندل أسداً..
وقتها تساءلت ببراءة أعوامك الأولى: وهل توجد آساد فى الصحارى العربية...؟!
لكن أحداً لم يُجبك، ولم تكرر السؤال لأن «فن» الجدل لم يكن عرف طريقه إلى
روحك وقتذاك.. وظلت الصورة المتأرجحة بخيوط الذكريات ترتسم فى ناظريك
وتتوالى، والأسد صريع وعنتره «يزار» فوقه وشيبوب يتقافز حوله فى بلاهة...!
لم تكن تعرف وقتها ماذا تعنى الطبقية ولماذا كان الاضطهاد الدائم لذوى البشرة
السوداء، مثلاً لم تكن تعرف أيضاً لماذا يقاوم هذا «العنتره» قدره الموسوم ويرفضه
وينتصر عليه..

هل لأنه أحب عبلة..

أو لأن روحه فى الأساس كانت أكثر إباءً مما ظنَّ الجميع .
هذه الأسئلة لم تطف بذهنك وإن كان حماسك للرجل يقوم على أنه «فارس جدع يأخذ حقه بذراعه» .. ذراعه الذى يثنى الحديد ويحمل سيفاً بتاراً ، وإن كانت القصص المرسومة فى مجلات الصغار قد بررت لك همجية الحياة القبلية القديمة وقدمت لك السببى واغتنام الضعفاء وإشاعة الذعر بين الديار على أنه فروسية «عصماء» .. وهو خطأ مازالت مجلات الأطفال العربية مستمرة فى مثله بنجاح كبير .. !!

حتى إذا كبرت قليلاً .. ومعك كانت تكبر التساؤلات .. رأيت السينما العربية أيضاً تسهم فى هذا التزييف :

كان «بطل الترسو» - فريد شوقي - يمارس «الأكشن» هذه المرة بالسيف ، وهو يرتدى أزياء ما تظن عنتره نفسه كان يحلم بمثلها ، ويتجه هذا البطل المزيف إلى «الحيرة» - شمالاً - ليأتى بالنوق العصافير مهراً لعبلة - التى لم تكن فى ذلك الشريط تستحق أكثر من عشرة دراهم - فيقع فى الرمال المتحركة التى لا تتوفر إلا فى صحراء الربع الخالى الواقعة - جنوباً - والتى مازالت رمالها تتحرك ، فيما يقع الشريط السينمائى أيضاً فى كثير من المغالطات : فقبيلة بنى عبس تغنى فيه بمناسبة وبغيرها ، وبعض راقصى فرقة الفنون الشعبية يتقافزون فى الخلاء ، بينما عمارة بن زياد منافس عنتره على حب عبلة - فى الشريط طبعاً - يتحرك ببلاهة وبشكل منمَّ يثير الاشمئزاز (على رغم أنه كان أحد فوارس بنى عبس ولم يكن له فى عبلة مأرباً) ..

إذن .. كل ما سكنك فى هذه المرحلة كان تشويهاً متعمداً حاول اختراق ثوابتك .. وكان الفرق شاسعاً بين ما التقطته طفولتك وبين ما يراه ريعانك ..
فأين هى الحقيقة .. ؟

فى الكتب .. أو فى الحكايات المروية ، أو تحت جلاباب شاعر الرابة الذى كان يجوب «قنا» .. مدينتك البعيدة المستحمة دائماً بماء الظهيرة .. والتى كان شبابها «القديم» يسهرون مع غزوات عنتره وارتحالات أبى زيد الهلالي فى القفار والبادى

قبل أن يصل «الفيديو» وغيره وتضيع الاهتمامات..
لا شيء كان واضحاً لديك فى كل المراحل.. ومرّ عنتره أمام عينيك بأشكاله
المتناقضة ليستريح فى صندوق مهملات الذاكرة وليقفز آخرون وآخرون محل
الاهتمام، ثم يعبرون صامتين أيضاً لتقفز الإبداعات وتتشابك أحداث القراءات
وتنتفض عصافير القصائد فى أقفاصها الحجرية بحثاً عن مقر..

فلماذا عاد عنتره فجأة من تلك الخزانة المלאى بالتهويمات «ليفرد» طوله فى كامل
المخيلة ويعود لحمل سيفه - الذى يستعمله حرس التشريقات الآن - وهو يزأر
بشكل اعتبرته «حماقة» بينما يتدافع على يدى صديقك القاص السعودى عبد العزيز
مشرى، الذى «أتى» به إلى القرن العشرين - فى إحدى قصص مجموعته أسفار
السروى - حافياً على الأسفلت «المعاصر» ليوقفه شرطى قمى وجاهل ويبعثر كرامته
التاريخية على الأرض.. ثم.. يجندله بطلقة واحدة، وهو الذى كانت تتكسر حواليه
النصال على النصال..

لماذا عنتره..؟! ولماذا الإصرار على لقياه..
أستراه الحنين لمثل هؤلاء وافتقارهم فى زمن اللا بطولة العربى، أو ترى لكونه
فريد عصوره القديمة خاصة فى ارتدائه ثوب الإباء والشعم:

ولقد أبيتُ على الطوى وأظَلُّهُ حتى أنالَ به كريمُ المأكِلِ
وهى إحدى الصفات التى جعلت الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يقول
«ما وصف لى أعرابى قط فأحببت أن أراه إلا عنتره»..
أو لأنه كان عنواناً للأخلاق الرفيعة التى جعلته أيضاً عنواناً للفروسية
المتكاملة..

أو لأنه كان شاعراً فذاً كتبت قصيدته بماء الذهب وعلقت على أستار الكعبة،
على رغم أنه كان مُقلّاً من قبلها ومن بعدها حيث كان يقول من الشعر بيتين
أو ثلاثة، حتى ذهبت الركبان إلى القول بأنه وضع فى هذه المعلقة - أو المذبة
- كل شاعريته ومياها العذبة..

أسئلة كثيرة تمر.. وأخرى ترتدى جواربها لتقفز أسوار المسافات والأزمنة، لكن

السؤال المهم: أين مواضع عنتره الآن.. كان الأهم.. وهو السؤال الذى بدأت فى إلقائه على بعض المثقفين السعوديين، فذهب الناقد فائز أبا إلى أنه فى شمال أرض اليمن، متعللاً بأن ذوى البشرة السوداء «متوافرون» هناك فى بعض المواضع - التى لم يتذكرها وقت المحادثة - وأعتقد أنه يميل برأيه إلى القبائل المعروفة باسم عبس فى عصرنا الراهن، وهو ما أشار إليه الدكتور عبد العزيز بن محمد الفيصل فى بحثه الشامل «شعر بنى عبس فى الجاهلية والإسلام حتى آخر العصر الأموى» فقال: إن القبائل المعروفة بذات الاسم حالياً هى:

- بنو عبس: فى تهامة فى الجنوب الغربى للمملكة العربية السعودية، وبلادهم تمتد من البحر إلى خمسة وعشرين ميلاً فى الداخل ويجاورهم من القبائل بنو حسن فى الشمال وبنو أسلم فى الشرق، وبنو وزعات من مُعَيْد فى الجنوب، وأفخاذهم: مطولة، مناصير الغُريرة، كفرا، رُئْف، شَغَار، خرازة، قطبعة، بَطَارَى، موانع.

- بنو عبس فى تهامة فى جيزان قاعدتهم ضَمَد وهم: قبيلة العزيين، السلاطين، الصبارنية، آل غشم، آل رشيدة، الشقافية، النহারية، آل مويد، الخواجية، آل قطنية.

ويذكر حسن عبد الله القرشى فى كتابه «فارس بنى عبس» أن عبس جيزان من القحطانية من خولان.

- بنو عبس: من بنى شهر فى تهامة وهم: الحصنة، الحَيْد، (حيد عبس) آل عبيد، آل عمار.

وهذه القبائل كلها ليست بذات صلة بالقبيلة المقصودة: عبس الغطفانية التى ينتسب إليها عنتره بن شداد.

أما لنسب هذه القبيلة، فلا بد من الرجوع إلى بعض المصادر التى لا يرقى إليها شك مثل جمهرة النسب للكلبى، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم، والأنساب للسمعانى، وعجالة المبتدى، والإنباه على قبائل الرواة لابن عبد البر، ونسب عدنان وقحطان للمبرد، واللباب فى تهذيب الأنساب لابن الأثير، ونشوة الطرب لابن سعيد، والأغانى للأصفهاني، ونهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب

للقلقشندی، ونهاية الأرب للنویری، وصبح الأعشى، وسبائك الذهب، ولسان العرب (باب عبس) وهی التي تُجمع على أن عبس قبيلة مُضربة تُكوّن مع أختها ذبیان معظم قبيلة غطفان، وقبيلة غطفان قبيلة قيسية مُضربة، وعبس جد القبيلة هو عبس بن بُغيض ابن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان، واشتقاق كلمة عبس - بفتح العين وسكون الباء - من عَبَس الرجل يَعْبُسُ عبوساً وَعَبْساً فهو عابِس.

فعبس اسم أصله الصفة، وعبس من أسماء الأسد.

وقد أنجب عبس - الجد - خمسة أبناء هم: قطعية ووزدة والحارث وغالب وورقة، وقبائل عبس تنتمي إلى قطيعة، وقد أنجب قطيعة ثلاثة أبناء هم: الحارث وغالب ومعتم، وقبائل عبس يتصل نسبها بالحارث بن قطيعة - وهی قبائل كثيرة - أو بغالب بن قطيعة.

وقد أنجب الحارث بن قطيعة مازناً وعامراً وذكواناً وزُبينة وشداداً وجروة (اليمان)، فمازن بن الحارث بن قطيعة له من الأبناء: ربیعة وبربوع، وقمير وبجالة، وولد زبينة: ذكوان ومن ولد ذكوان: المقاصف، وولده جروة (اليمان) عمرو وربیعة ومن ولد عمرو حذيفة بن اليمان.

ولربیعة بن مازن بن الحارث بن قطيعة أربعة أبناء هم: روحة وروح ورياح وعبيد، ومن ولد يربوع بن مازن خالد بن برز، وقد أنجب رواحة: جذیمة وخلفاً وعمراً وعويراً (عميراً) وخالداً وحنظلة.

وقد أنجب غالب بن قطيعة ثلاثة أبناء هم عود ومالك وقيس، فأنجب عود ابن غالب: هدماً وسهماً وعبداً ووائله، وأبناء هدم: ناشب وكراثة ومعلق وحليس، وولد ناشب: عبد الله وعبد مناف (القارب) وزيداً وأقلت، وأنجب عبد الله بن ناشب: سفيان والأسلع وزيداً، وولد سفيان: زياداً وحبيشاً، فأبناء زياد: الربيع وعماره وأنس وقيس، وأنجب حبيش الحارث وأنجب الحارث مرثداً وولد مرثد شريكاً وولد شريك: قُرّة الذي وُلّي مضر للوليد بن عبد الملك.

فولد مخزوم: معيط ومريطة وقراد وصُحار وخذار وزائدة وجوية وعبد الله وجراد.

ومن ولد قراد: معاوية وقد ولد شداداً والد عنترة بن شداد.

ومن ولد جوية الحطيئة الشاعر المشهور.

وولد الأسلع بن عبد الله بن ناشب: عَمراً (حبيبة)، وولد زيد بن عبد الله عَمراً

وولد عمرو الورد وولد الورد: عروة الشاعر المشهور.

ومن بنى أفلت بن ناشب قَنان بن درم، وهو صحابي كان له شأن في حروب

خالد بن الوليد، وأنجب سهم بن عوذ بن غالب سعداً وهو أبو حشر الذي يقول «مكره أخاك لا يطل».

وبعد التأكد من عدم صحة رأى الناقد «فائز أباً» الذي ذهب إليه، ذكر لى الشاعر

السعودى عبد الله باهيثم أن أرض بنى عبس وديارها كانت تقع فى الجواء، وهى

تابعة الآن لبلاد القصيم، قلت فلأتأكد أيضاً من صحة رأى، وهو ما ذهبت إليه

فى بعض الكتب التى استغرق البحث عنها وقتاً فى مكتبة جامعة الملك عبد العزيز

والتي تحوى قسماً مُهِمّاً للمخطوطات، وبين المؤلفات المختلفة للمهتمين بحركة

القبائل ومواضعها ومنها كتاب «معجم بلاد القصيم» لمحمد بن ناصر العبودى الذى

ذكر فيه قول ياقوت «وقال الأصمعى بعد ذكره الرمة: وأسافل الرمة تنتهى إلى

القصيم وهو رمل لبنى عبس» وقال الهمذانى فى صفة جزيرة العرب «من أوطان

اليمامة القصيم لعبس» وقال البكرى فى معجم ما استعجم «منازل بنى عبس بين

أبانين والنقرة».

وتشمل مساكن عبس القصيم من شماله إلى جنوبه ومن غربه إلى شرقه، فجبل

قطن هو الحد الغربى لبلاد عبس فهو لهم بمياهه، وقاع بولان الذى ينتهى فيه ماء

وادی الرمة (بالقرب من بلدة الربيعية) هو الحد الشرقى لبلاد عبس، وجبلا أبانين

هما الحد الجنوبي لبلاد عبس، والجواء الحد الشمالى لبلاد عبس، ولبنى عبس

مساكن شمالى قطن وشمال الجواء.

وتُقَدَّر المسافة بين قطن وقاع بولان بما يقرب من مائتي كيلو متراً كما تقدر المسافة بين أبانين والجواء بما يقرب من مائة وخمسين كيلو متراً.
ويذكر الحسن الأصفهاني (وكان يكنى بلُغْدَة) في «بلاد العرب» أن لبني أسد مساكن في القصيم.

وتختلط مساكن عبس في أطراف القصيم بمساكن القبائل الأخرى، فمن الناحية الغربية تشترك عبس مع بقية غطفان من ذبيان وغيرهم، ومن الناحية الجنوبية الغربية تختلط بلاد عبس ببلاد بني كلاب ومن الناحية الجنوبية الشرقية تجاور عبس قبائل بني عامر وُعْنَى وباهلة، ومن الناحية الشرقية والشمالية تجاور قبائل تميم حيث تختلط قبيلة عبس ببني يربوع في شمال القصيم والشمال الشرقي..

كما يذكر الأصفهاني في «بلاد العرب» أيضاً أن من أودية بني عبس المشهورة: وادي الرمة وهو واد كبير تحله قبائل كثيرة، فأعلاه لسليم ووسطه لبني كلاب وغطفان، وأسفله لبني أسد وعبس، وثادق أعلاه لبني أسد وأسفله لعبس والجُرَيْر وتحل عبس أسفله، وفي بلاد بني عبس معادن منها: معدن النقرة ومعدن أبرق خُزْب وهو معدن فضة.

ويذكر البكري في «معجم ما استعجم» أن جُلَّ عبس يستقرون في بلاد القصيم وهناك فئات قليلة من عبس تسكن في ركبة بالقرب من تيماء، كما أن لبني عبس مساكن داخل بلاد إخوتهم غطفان.

وقال الحسن الأصفهاني أيضاً «إن أهل القصيم يسكنون في خيام الخوص وهي منازل بني عبس وغيرهم وفيه نخيل كثيرة»، ويقول في موضع آخر «جو مرامر لعبس وأثال لعبس وهو واد فيه نخل».

وهي قبيلة محاربة ومعدودة في جمرات العرب: قال الجاحظ «وجمرات العرب عبس وضبة ونمير» وقال ابن عبد ربه «عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان وهي إحدى جمرات العرب» وقال هبة الله الحلبي في المناقب الزيدية «جمرات العرب أربع: ضبة بن أد في خندف ونمير في عامر وعبس بن بغيض في قيس وبنو الحارث بن كعب في مذحج» وقال ابن سعيد «وعبس إحدى جمرات العرب»

فالذين يذكرون جمرات العرب يعدون قبيلة عيس واحدة منها ولا تعد القبيلة من الجمرات إلا إذا كانت كالجمرة لا يطؤها أحد ولا يستبيح بلادها، وقال ابن منظور «الجمرة كل قوم يصبرون لقتال من قاتلهم لا يحالفون أحداً ولا ينضمون إلى أحد، تكون القبيلة نفسها جمرة تصبر لقراع القبائل كما صبرت عيس لقبائل قيس» ومما يدل على صبر هذه القبيلة وشجاعتها اعتراف فارس اليمى عمرو بن معد يكرب الزبىدى بقوة عيس وصبرهم فى القتال حين قال:

أجاعلة أم الثوير خزايةً على فرارى إذ لقيت بنى عيس

لقيت أبا شاس وشاساً ومالكاً وقيساً فجاشت من لقائهم نفسى

وليس يُعاب المرء من جبن يومه إذا عرفت منه الشجاعة بالأمس

وقال عمرو بن معد يكرب أيضاً: «ما أبالى من لاقيت من فرسان العرب ما لم يلتقى خراها وهجيناها» يعنى بالخرين عامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث وبالعبدى عنترة والسليك بن السلكة...!!

... هي أرض الجواء إذن، والتي تبدأ بعد مدينة بريدة بحوالى ثمانية وعشرين كيلو مترا ببلدة عيون الجواء، التى تمتد شمالاً حتى بلدة قصيباء، وقد تجولت فى عيون الجواء قرابة الساعتين مع أحد مهندسى الشئون القروية طارق جمال أو (حازم) وهو أخ مصرى يعيش فى البلدة منذ أحد عشر عاماً فذهبنا إلى البلدة القديمة المهجورة والتي يقال: إنها بنيت على الموضع القديم «لنازل» قبيلة بنى عيس - أو بعضها - ثم ذهبنا بمصاحبة أحد أبناء المنطقة وهو «حمد العلى الزيدان» الذى يعمل فى بلدية البكيرية لنقف بعد سبعة كيلو مترات من عيون الجواء - مارين بروضة الجواء - على أرض غاف الجواء حيث توجد صخرة مشهورة يسميها البدو فى المنطقة «حصاة عنترة» وهى التى كان يلتقى فيها عنترة بعبلة ويستتران تحتها عن العيون، ومن قراءة المعلقة يتضح لنا أن دار عبلة كانت تقع بأرض الجواء.. حيث تقول:

يا دار عبلة بالجواء تكلمى وعمى صباحاً دار عبلة واسلمى

والجواء المقصود هنا جمع جَو وهو البطن من الأرض، الواسع فى انخفاض

وكان أهل نجد يسمون المنطقة جواء عدنة ، وهو نفس ما ذهب إليه التبريزي في شرحه لمعلقة عنتره في كتابه «شرح القصائد العشر» ثم يحدد أنه كان بعيداً عن موضع ديار عبلة - الذى تبدل فى تلك الحالة وأصبح فى أرض عنيزة وهى المدينة المعروفة بذات الاسم الآن وتقابل عيون الجواء فى اتجاه وادى الرمة ، وعنيزة تقع فى أول الطريق إلى حائل وعلى بعد يقارب الأربعين كيلو متراً من مدينة بريدة وعيون الجواء:

كيف المنارُ وقد تربعَ أهلها بعنيزتين وأهلنا بالغَيْلَم

وأذهب ببصرى فى الأنحاء ، فى تلك النواحي الخالية إلا من الرمال والجبال متفاوتة الارتفاع ، وأذكر كيف قال ابن قتيبة عن تفجير شاعرية عنتره فى معلقته أو مذهبه ، من أنه «كان لا يقول من الشعر إلا البيت والبيتين والثلاثة حتى سابه رجل من قومه فذكر سواده وسواد أمه وغير ذلك وأنه لا يقول الشعر فقال عنتره: والله إن الناس ليرافدون الطعمة فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك مرفد الناس قط، وإن الناس ليدعون فى الغارات فيعرفون بتسويمهم فما رأيك فى خيل مُغيرة فى أوائل الناس قط، وأن اللبس ليكون بيننا، فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك خطة فصل وإنما أنت فقع بقرقر، وإنى لأحضر البأس وأوفى المنعم وأعف عن المسألة وأجود بما ملكت يدى وأفضل الخطة الصماء ، وأما الشعر فستعلم ، فكان أول ما قاله: هل غادر الشعراء من متردم وكانت العرب تسميها المذهبة»..

لكنى أعتقد أن ما فجّر الشعر فى نفسه هو ارتحال عبلة مع أهلها إلى موضع آخر هو الجواء ، وهو الأقرب إلى الصواب لأن عنتره عاش عمره كله وهو يعبر بسواد لونه سواء كان طفلاً أم يافعاً أم رجلاً وأن مثل هذه العيرة ليست بالجديدة أو أنها ليست بذلك السبب الذى يجعل نفسه تهتاج فتبدع مثل هذه القصيدة الطويلة والراقية على مستويات اللغة والصورة ووحدرة المضمون ، لكن حدثاً زلزل كيانه ، هو ارتحال محبوبته ، ثم تفجرت نفسه بلواعجها فذكر اسمها وهو يقف على ظلل منازل قومها ليرتجى لو أن الدار تكلمت وحديثه عن شئون المرتحلة إلى مكان آخر.

... ذهبتُ إلى مواضع ديار عنترَة وهى فى مدينة قصيبا التى تبعد عن عيون الجواء بحوالى ستين كيلو متراً، ولنا أن نتصور بُعد المسافة فى الزمان القديم على سهوة الجياد مثلما نتخيل صدق الرواة فى القول بأن الصخرة كانت مكاناً للالتقاء بين عبلة وعنترَة فهى تبعد عن الجواء بحوالى سبعة كيلو مترات وعن قصيبا أو «قو» - وهو اسمها القديم - بخمسين كيلو متراً تقريباً، وبالتالى فإن مثل هذا اللقاء ما كان ليتم لو أن المكان أقرب إلى الجواء - حيث عيون أبيها مالك بن قراد وعيون أبنائه وعبيده أو لو كان المكان أبعد، وهو ما يمثل إجهاداً لعبلة التى كانت تقطع المسافة - فى أغلب الظن - وهى ترعى الغنم فتسرح فى الوادى وتذهب إلى الصخرة.. وتذهب المعلقة إلى المعنى الذى نذهب إليه من أن الحزن الشديد هو الذى فجر شاعريته حين يقول:

فوقفتُ فيها ناقتى وكأنها فدنُّ لأقضى حاجةً المتلوم
وتحلُّ عبلةً بالجواء وأهلنا بالبحزن فالصمان فالمتثلّم

فالحزن هنا ليست موضعاً كما قال أبو جعفر: «الجواء بنجد والحزن لبنى يربوع والصمان لبنى تميم ومتثلّم مكان» وإنما صحيح العبارة - فيما نظن - أنه يصف وقوع أهلها - تعبيراً منه عن تعاطفهم مع قصة حبه الذائعة - فى الحزن من ابتعاد الحبيبة «وهم» فى مكان بين جبلى الصمان والمتثلّم «وأهلنا» بالحزن» فصوره مكاناً مسكوناً ليعبر عن شدّته، وهذا الافتراض الذى نذهب إليه إنما يكون مقروناً بالجانب النفسى الذى لم يكن كثير من نقاد العرب القدامى يعتدّون به أو يعتمدون عليه، وربما كانت قصة طلبه الزواج بعبلة ورفض أبيها مالك، وغضب شداد من أخيه لاعتبار أن الرفض طاله هو قبل أن يطال ابنه عنترَة، الذى عبّره مالك بالسواد وبأنه عبد شداد، وهو السبب فى حدوث الجفوة، ومن ثم قرار الارتحال بالأسرة التى تعنى هنا العشيرة (أو أحد بطون القبيلة)، والابتعاد كثيراً من موضع «قو» - قصيباء حالياً - إلى عيون الجواء (وهى كما قلنا مسافة تمتد لستين كيلو متراً) واتخاذ مكان هذه العيون - المائية - التى يكثر حولها الكلاً مكاناً للرعى والاستقرار، وبعدها ذهبوا إلى عنيزة المتاخمة للمكان «ربما» بعد أن عثر عنترَة على

الديار الجديدة بالجواء، وهو ما يشير إليه وقوفه على الطلل (يا دار عبلة) ومن ثم كان المكان قفراً حين أراد زيارته وتفقّد عبلة وأهلها فلم يجد أحداً، أو أنها ذهبت مع عشيرتها إلى أرض إحدى القبائل المعادية (الزائرين) وهى التى عناها بقوله:

حلت بأرض الزائرين فأصبحت غيراً على طلائك ابنة مخرم

وما يؤكد وجود مثل هذا الخلاف بين عشيرة عبلة وبين عشيرته - وهما ابنا العم - ما ذكره شعراً فى المعلقة:

إن كنت أزمعت الفراق فإنما زمت ركابكم بليل مظلم

وهو ما يشير إلى خروجهم ليلاً من ديار بنى عبس القبيلة الأم للعشيرتين والخروج بليل فى عرف القبائل العربية لا يعنى إلا هروباً من مذلة أو مصير غير مستحب، ثم يوالى معلقته فى الفخر والحماسة وما إلى ذلك مما هو معروف، لكننا أوردنا هذه الأبيات لإثبات أن ما فجر شاعرية عنتره هو احتياج نفسه بحدث عظيم حيث خرجت عشيرة عمه مالك إلى غير ذات الديار، ومن ثم فقدان عنتره فرصة اللقاء بمحبوبته، فبدأ من حيث كان يخشى العرب: التعريض باسم المحبوبة، وهو ما يثبت أيضاً أن رفض زواجه منها لم يكن لسبب ذكر اسمها - لأنه ذكره كثيراً فى قصائد صباه الأول - بل لأنه أحد العبيد، وحين شعر باليأس فإنه عرض اسمها فى القصيدة التى تحمل الكثير من الأسى للفراق ويذكرها - أى عبلة - بما كان عليه من فروسية - أو بما كان بينهما من عشق.

ولم تشر أى المصادر إلى زواجه بعبلة، مثلاً لم تشر الوقائع إلى عودة أبيها مالك وعشيرته إلى عبس، خاصة وأن القبيلة الأم كانت تخوض حرباً طويلة مع بنى العمومة ذبيان اصطاح العرب على تسميتها بداحس والغبراء، والتى حضر عنتره بدايتها وهو ابن عشرين سنة، «وحسن فيها بلاؤه وحُمدت مشاهد» وشهد أيضاً نهايتها وهو ابن ستين سنة، والمثبت تاريخياً أن هذه الحرب استمرت أربعين سنة متواصلة، كما لم تشر المصادر إلى غزوة أرض الحيرة - وحيداً - من أجل الظفر بألف من النوق العصافير وهى الحكاية التى تفنن فيها الشريط السينمائى

المعنون باسم «عنتر بن شداد» ومثله الشريط الأسبق المعنون باسم «عنتر وعبلة». والتي جاء فيها وقوعه في أسر المنذر ثم تحطيمه للقيود الحديدية المصدلة ما يشير إلى أننا أمام بطل أسطوري يستطيع تحطيم الصلب - ربما - اعتماداً على قوله بالشعر العامي:

أنا عنتر بن عبسس لوى قاسى الحديد وما لؤيت

وهو ما جاء ذكره في حديث محمد العبودى عن «قصر عنتر» في كتابه الضخم «معجم بلاد القصيم» (سنة أجزاء)، أما بالنسبة إلى الحديد، فهو ما كان يحدث حين يقوم بلى حديد الرمح، وهو ما يستطيعه أى فارس ذى بأس مثل عنتر، الذى كانت شجاعة قلبه فى اقتحام المعارك هى أكبر صفاته، ومثلها صرخته الداوية التى كان يطلقها فى الوغى فتزلزل أفئدة الفرسان العتاة، وهو ما يشير إلى فهمه «السيكولوجى» العميق، فإن إثارة الرعب فى المنافس أول الخطوات لهزيمته، ومن هذه الصرخات ما اهتز لها قلب ضمضم المرى وكان أحد فرسان بنى ذبيان المعدودين والمعروفين بالجسارة وشدة البأس وهو ما ذكره عنتر فى معلقته ويحمل فى نفس الوقت تهديداً لوعيد حصين ودريد ابنى ضمضم اللذين توعدا بالثأر لأبيهما من عنتر، حين قال:

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدُر للحرب دائرة على ابنى ضمضم
الشاتمى عرضى ولم اشتمهما والناذرين إذا لم ألقيهما دمي
إن يفعلوا فلقد تركتُ أباهما جزراً لخامعةٍ ونسرٍ قشعهم.

وتدور عجلة الحرب من جديد فيلتقى الحصين بعنتر فيطعن عنتره الحصين بالرمح فيلقيه عن فرسه، لكن الحصين ينهض ويلحق بفرسه التى انطلقت فى صفوف ذبيان فيطعن وجه عنتر بالرمح فيظن أنه فقاً عينه، وفى أثناء ذلك يحمل دريد بن ضمضم على معاوية عم عنتره فيقتله (شرح ديوان عنتره للبطيوسى) وبذلك أحرز ابنا ضمضم نصراً بقتل معاوية وطعن عنتره فى وجهه فقال حصين بن ضمضم فى تلك الحادثة:

أما بنو عبيس فإن زعيمهم أحلت فوارسه فأفلت أعورا
لما رأى فرسان مُره والقنا لم يستطع لقتائهم أن يصبرا
تركت بوجه العبد طول حياته أرماع مُرة والأسنة منظرأ
وبعد حملة ابن ضمضم على عبيس وقتل معاوية وطعن عنترة صاح قيس بن زهير
- وكان زعيماً لعبس - بالخيـل فأقحمها صفوف ذبيان وضرب قيس دريد بن
ضمضم فصرعه عن فرسه فأقبل عليه أخوه حصين، وفي أثناء ذلك كان عنترة قد
مسح الدم عن وجهه وركب جواده واقتحم الصفوف يبحث عن الحصين فلما رآه
الحصين هرب عن وجهه وترك أخاه فلحقه عنترة وطعنه في مقعدته (مؤخرته)
وهو يقول:

اصبر حصين لمن تركت بوجهه أثراً فإنى لا أخالك تصبر
إن الكريم ندوبه في وجهه وندوب مُرة لا تُرى في المنحر

هكذا عاش عنترة العبيسي وقائع داحس والغبراء والتي حُسُن فيها بلاؤه وكثرت
فيها أغراضه الشعرية حتى مات وهو على مشارف الستين عاماً أو تزيد، أو كما
جاء في الأغاني للأصفهاني: أن عنترة تُوفى في بلاد قومه عبيس بين شرح وناظرة
عندما هبت عليه ريح شديدة في يوم قانظ، ونقل عن أبي عبيدة أن طيئاً تدعى قتل
عنترة وأن الذي قتله هو الأسد الرهيص، وقيل قاتله جبار بن عمرو الطائي، و وفاة
عنترة بعد يوم جبلة وبعد الصلح بين عبيس وذبيان، وبناء على ذلك فوفاته قريبة من
وفاة الربيع بن زياد ويُقدَّر أنه توفي قبل الهجرة النبوية بخمسة وثلاثين عاماً.

أما بنو عبيس فإنهم تفرقوا بعد الصلح مع ذبيان ومنهم من برح دياره زمن
الخصومة، وذكر ابن الكلبي في «جمهرة النسب»: خرج عمرو بن رواحة مع
قيس بن زهير حتى أتى عمان فنزلوا فبقوا بها، ثم قال - وهو يتحدث على آل
جذيمة - «وبالكوفة منهم أهل بيت» ثم ذكر آل مازن بن غالب وهو بجاله ويربوع
وقمير وربيعه فقال إنهم «أهل بيت بدمشق» ثم قال - وهو يتحدث عن بطن آخر
من بطون عبيس هم آل عبيد بن ربيعة «ومنهم قاضي القضاة لهارون الرشيد، وقد
تولى إمارة مصر في العصر الأموي في زمن الوليد بن عبد الملك قرّة بن شريك من

آل حبيس بن سفيان ، فمن المرجح استقرار أناس من عبس في مصر ومما يؤيد ذلك أن بنى فزارة من ذبيان استقروا في مصر بعد ذلك وعبس وذبيان من غطفان. ويذهب الدكتور عبد العزيز بن محمد الفيصل إلى أن ابن حزم الأندلسي - وهو من رجال القرن الخامس - قال إن لبنى عبس مدينة بالشام هي «حيار بنى القعقاع» نسبة إلى جدهم القعقاع بن خليل العبسي ، ويذكر ابن خلدون أن بنى رواحة في برقة (في ليبيا حالياً).

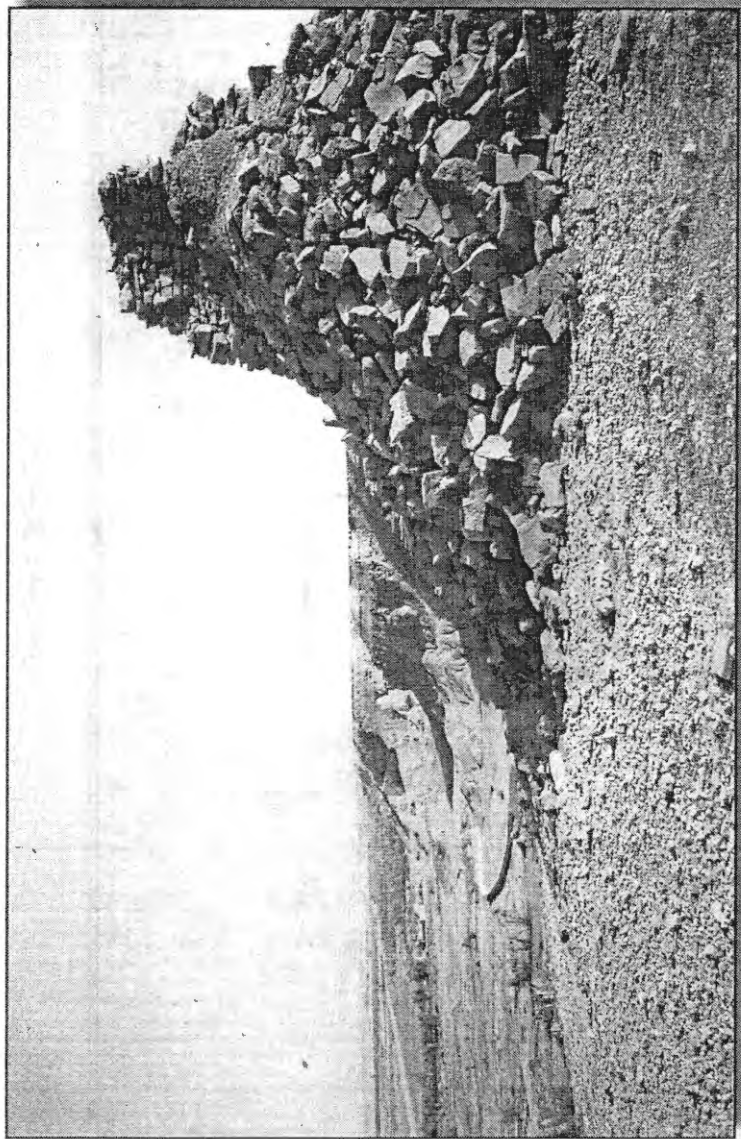
ويذكر القلقشندي في «قلائد الجمآن» أن في المغرب أحياء تنتسب إلى عبس ثم قال «فلا أدري أعبس غطفان أم غيره».

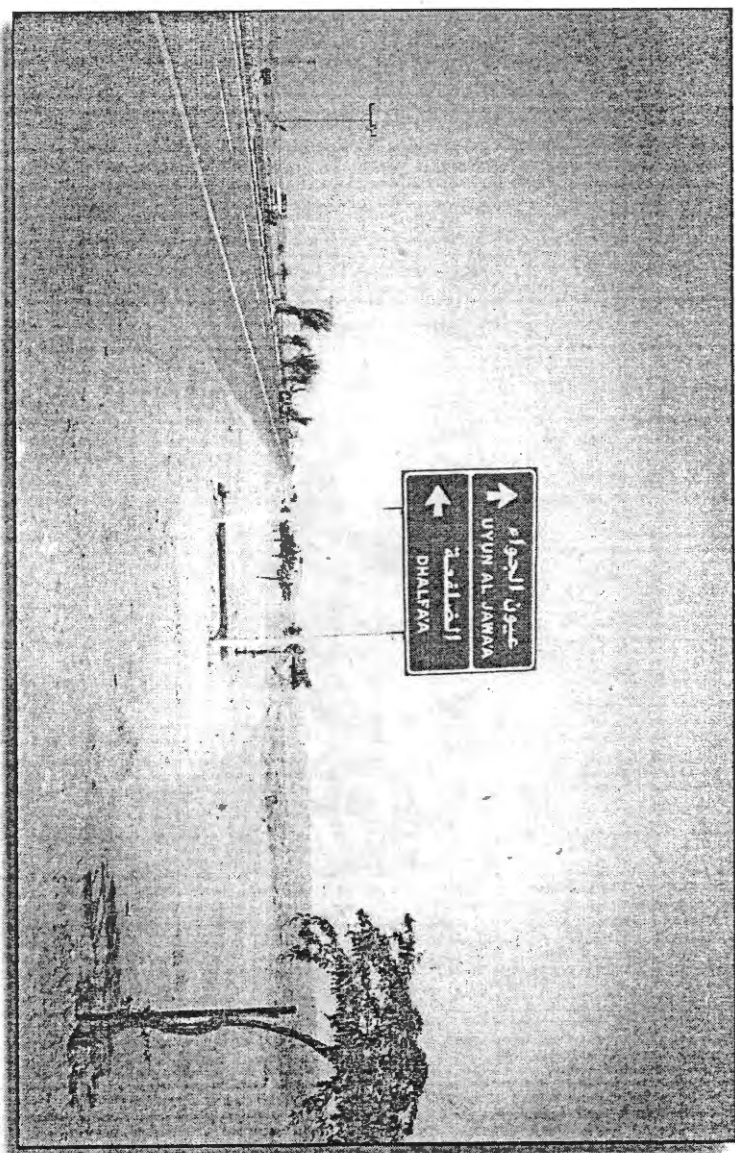
ويذكر ابن سعيد وابن خلدون والقلقشندي أن عبساً نزحت عن بلادها وتفرقت في الفتوح ، قال ابن سعيد «وليس لغطفان في هذه البلاد ذكر ، تفرقوا على بلاد الإسلام وغلبت على أرضهم بالحجاز بطون طي» وقال ابن خلدون في كتاب «العبر» : «تفرقت عبس وحلت بلادها طي وليس في نجد لهذا العهد أحد من بنى عبس».

وقال القلقشندي في كتابه «نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب» أنه «ليس بنجد الآن أحد من بنى عبس» فيما يرد الدكتور عبد العزيز الفيصل بأن هذه الأقوال فيها نظر لأنه تقدم أن الحسن الأصفهاني - المعروف بلغة - يذكر أن لبنى عبس نخيلاً كثيرة في القصيم وأصحاب النخيل يستقرون في بلادهم ولا ينزحون عنها» وأضاف أنه «إذا كانت بطون من عبس قد استقرت في الشام وفي العراق ومصر والمغرب فإن بطوناً من عبس بقيت في القصيم ولكنها لا تُعرف الآن بعبس فليس لاسم عبس الآن وجود في القصيم».

وعليه .. واستناداً إلى شيوع بعض الصفات الأسطورية على عنترة العبسي ، أراني مضطراً إلى الحديث في الجزء الثاني من هذه الدراسة عن شخصية عنترة وحقيقتها خاصة أن بعض الشك يحوم حول وجودها ذاته وبعضه الآخر يتحلق حول المعلقة فيما تؤكد الشواهد التي زرتها وجود هذه الشخصية التي أشعلت الخيال العربي طويلاً منذ ألف وخمسمائة عام أو تزيد..

بقايا قصر عنتره على الجبال الغربى بوادى قصيباء

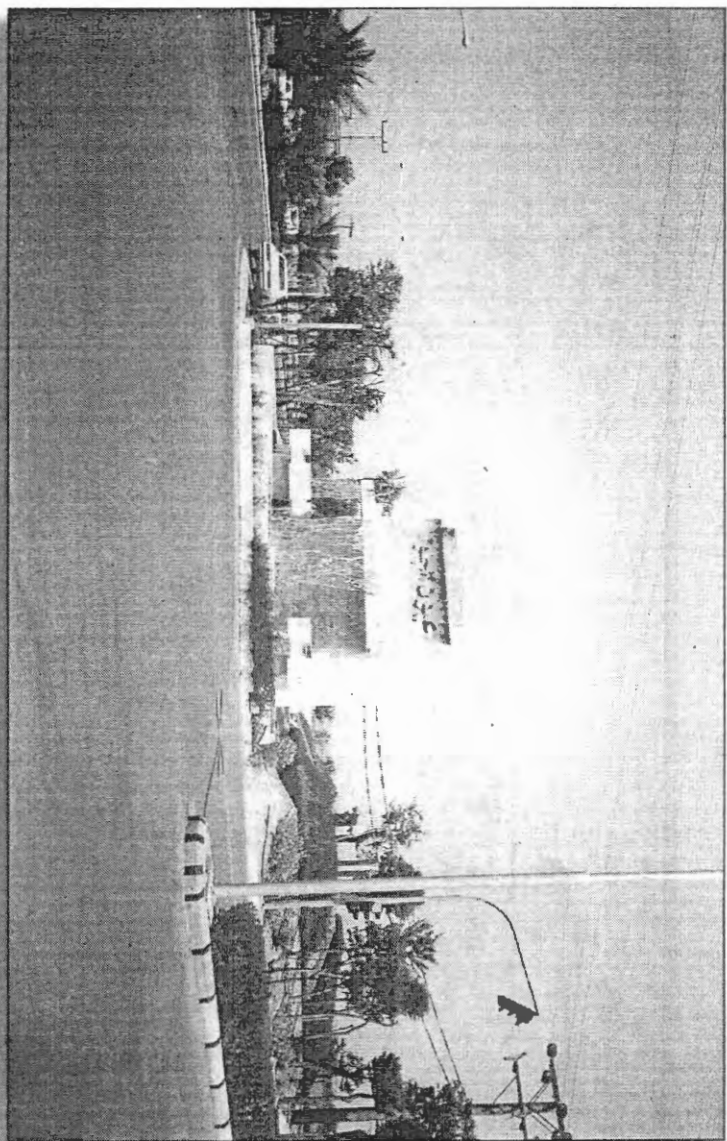




في الطريق إلى عنون الجواء.

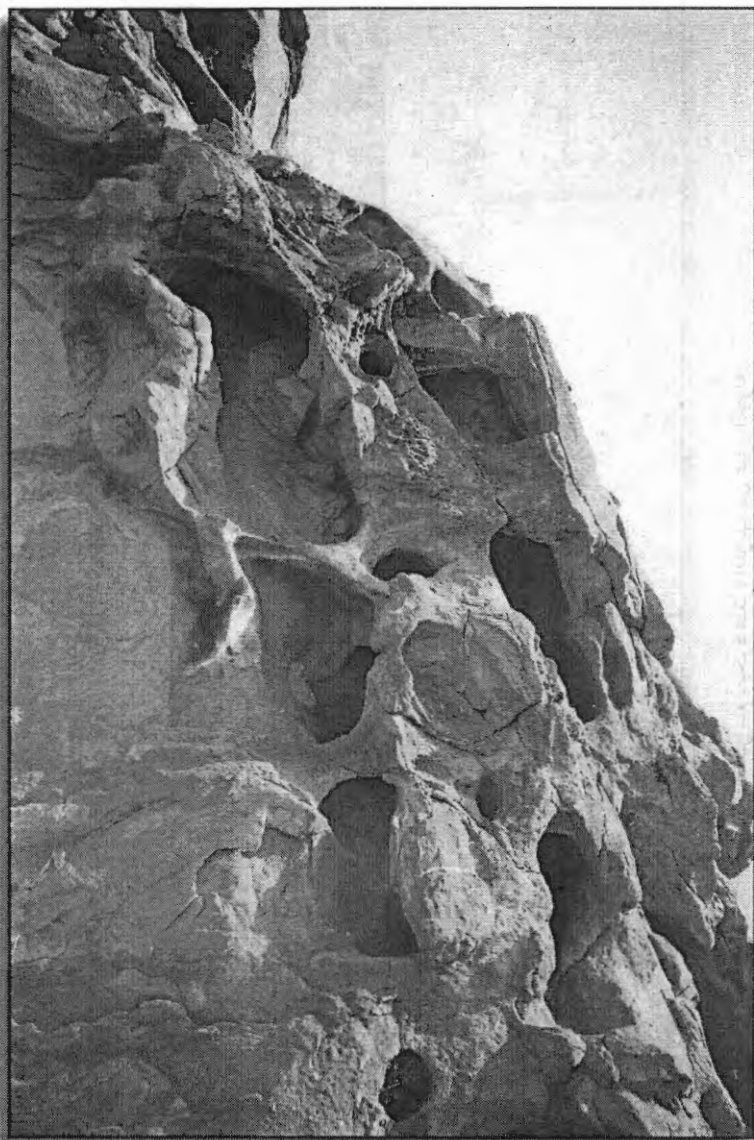


الكاتب مع صديق سودى أسفل الجبال الغربى.



بلدة عيون الجواء الحديثة.

صورة مقربة للصخر: عنترة.





منظر عام لمخربة عنترة القريبة من عيون الجواء.